مشكلة الهجرة العربية في رواية

بوسلهام الكط

إذا كان الواقع العربي الراهن يعاني من الأزمة ومن التمزق والتفكّك والتهميش.. على المستوى المعيشي الواقعي.. فهل هذا يصدق على الفكر العربي أو الوعي العربي كذلك..؟

وبعبارة أوضح.. أمام العدوان الغربي على المجتمعات العربية، وأمام المواقف المختلفة للدول العربية، وإزاء هذا العدوان المتسلط، وعدم قدرتها (الآن) على مواجهته وتحديه.. أليس من الممكن القول بأن الفكر العربي المعاصر أصبح بالضرورة واعياً مهمّته الحضارية والثقافية والإنسانية.. وبإشكالية الصراع القويّ والعنيف بين البلدان «الضعيفة» والبلدان «القويّة»..!؟!

تقول حميدة نعنع في صفحة ٦ من روايتها[1] هذه: «وقبل أن ننطق بحرف سمعت صرخة فاضل وسط ثمالته: «يا إلهي. جاء دورنا، سيكون مصيرنا جميعاً مثله». وكان إعدام محمد يطاردنا كذكريات قاتلة، وبدت لنا باريس في الصباح ميداناً مظلماً فسيحاً لاغتيال الثيران..».

وتضيف قائلة في صفحة ٧: «...أمي في حقول التبغ وانتظار النهايات المحتومة لامرأة على أبواب الخمسين.. هجّرتني إلى بيروت.. الجامعة الأميركية.. الغربة في الوطن.. الميناء المفتوح للجنون والحرية، والغرب القادم من زمن آخر، الغرب الذي رحل غازياً وعاد غازياً متّشحاً بالكتب والأغاني وأناشيد آخر الليل... ثم الحرب.. الحرب.. الحرب الأهلية التي لم تُبْقِ ولم تذر».

من هنا يبدو واضحاً، إذا ما اتّخذنا هذه الرواية كنموذج، في هذه القراءة، لتحليل ومناقشة وفهم هذه الإشكالية المرتبطة بأهمية الفكر أو الوعي العربي المعاصر.. فإن الوعي العربي بالفعل يعمل على خدمة الأهداف العربية بما لديه من وسائل وذلك لمواجهة المخاطر التي أصبحت تهدّد الواقع العربي على العموم.. إنه الوعي الذي أصبح يركّز على النزاع العربي الإسرائيلي والصراع العربي الغربي.. إنّه الوعي الذي أصبح يفضح الواقع المأساوي العربي الذي يزداد تفاقماً يوماً عن يوم، ويواجه سياسة الطامعين المتسلّطين.. هكذا أصبح في الحقيقة لا يبتعد عن خصوصية واقعه وإشكالياته.. إنّه الفكر أو الوعي الذي أصبح يكتسح الغموض برؤية واضحة ومعمّقة تعمل على فضح الإيديولوجيات الهدامة والسياسات المزيفة والخطيرة...!

والواقع أن هذه الإشكالية ظلّت حاضرة في الفكر العربي.. ولكنها للتعبير عنه التجأت إلى أساليب وطرق مختلفة.. فرضها التخصّص وكثرة القراءات والتأويلات لمعرفة الواقع العربي ومحاولة تغييره إلى واقع أفضل من الآن... فهذا الدكتور محمد عابد الجابري يقول في كتابه «إشكاليات الفكر العربي المعاصر»[2] صفحة ٥: «إشكاليات الفكر العربي المعاصر» هي جملة القضايا النظرية التي يناقشها المثقفون العرب في الوقت الحاضر والتي تخصّ وضع العرب الراهن في علاقته بالماضي العربي وبالحاضر الأوروبي الذي يفرض اليوم نفسه «حاضراً» للعالم أجمع».

كيف حدّدت حميدة نعنع مجال هذه الإشكالية!؟!.

كما رأينا في الأقوال السابقة. سلّطت الكاتبة بوعي عميق الأضواء على مصير العرب في أوروبا بصفة خاصة وفي الهجرة إلى الخارج بصفة عامة.. حيث تتعقّد الحياة أمام العرب المهاجرين عن أوطانهم.. الساعين إلى تحسين وضعيّاتهم المعيشيّة.. حيث تذكر لنا الآلام والمواجهات والمطاردات التي يعانون منها. فصورة «محمد» الذي حُكم عليه بالإعدام ظلّت حاضرة في ذهن أبطال الرواية المهاجرين.. لأنها تجسّد حقيقة كل المهاجرين المسلمين العرب وغيرهم.. ثم تعرّضت إلى علاقة الاستعمار بالدكتاتوريّين حيث تقول في صفحة ٩ من الرواية: «سألني الجلاّد: من تريد أن ترى قبل موتك؟ ودهش ثم ارتعش خوفاً وأنا أجيبه: «أريد أن أرى الديكتاتور».

وتضيف قائلة في صفحة ١٢: «صمت حقيقي بارد، وهؤلاء الرفاق الأربعة كل منهم جاء من بلد عربي رغم اختلاف المدن وأسماء الأزقة والحواري التي ولدوا فيها وعاشوا... رغم اختلاف النظم السياسية.. رغم الحروب الأهلية ذات الأسماء المتعدّدة، نحن مطارَدون هنا لا نتذكّر أسماء مدننا بالتحديد».

بإمكان القارئ الآن أن يكوّن صورة أو صوراً عن الوعي العربي المنبثق بالأساس من الواقع المأساوي للعرب وهم يعانون من الهجرة والظلم والاستغلال والمطاردة.. إنه وعي مزدوج.. وعي الفكر ووعي الواقع.. وعي المواطن العربي العادي ووعي العربي المثقف.. وعي الممارسة الفعلية ووعي الإحساس والتنظير فقط.. حيث أصبح العرب في الغربة بكثرة المواجهة والمطاردة... يكادون لا تُذكر هويّتهم.. فمَن يتحمّل هذه المسؤولية الجسيمة..!؟! وما هي الدوافع

الأساسية التي ترتّب عنها هذا الوضع المتردّي للعرب..!؟! هل هناك من آفاق وأحلام لتحرير هؤلاء السجناء من سجن الهجرة بالعودة إلى الأوطان وبضمان حق العيش كباقي الكائنات الحية الأخرى..!؟ ما هي حقيقة الواقع الداخلي للبلدان العربية..!؟!

تنشطر إشكالية الهجرة شطرين، كما جاء واضحاً في هذه الرواية، وذلك من خلال: الواقع العربي المزدوج.. الوعي العربي المزدوج.. الاستعمار المزدوج.. الأهداف المزدوجة.. الخ.

هذه خلاصة الصور الواردة في الرواية.. إنها صور الصراع العنيف التي ترسم حقيقة الواقع العربي وهو يعاني من منطق التناقض على جميع المستويات.. منطق الاستعمار والاستغلال والاستلاب.. هذه إشكالات هامة وأساسية أصبح يطرحها واقع علاقات الحكام بالمحكومين والأغنياء بالفقراء المظلومين.. وعلاقة سياسية العالم «المتقدم» بالعالم «المتخلّف».. هناك اختلاف كبير بين واقع وواقع.. إنها الإشكالية التي تعكسها بوضوح علاقات الهيمنة والتبعية، التي أصبحت شعار المنطق المعاصر.. وإذن، ما دور الفكر أو الوعي الناضج؟! هل يعمل هذا الفكر الثائر على القفز على الواقع.. أم على الارتباط به لإزالة الالتباس والغموض.. الذي يكتنف حقيقة واقع البلدان العربية؟!

تقول الكاتبة في صفحة ٢١: «..لا تكوني رومانسية يا سيدتي. هناك أكثر من مليوني عامل عربي في فرنسا لا يستطيع أيّ بلد عربيّ آخر استيعابهم».

وتذكرت رحلاتي إلى بلدان النفط.. تذكّرت وجوه العمّال الهنود وبؤسهم تحت الشمس الحارقة، هؤلاء لا يضرمون النار في الخيام، ولا يشعلون المظاهرات».

وتضيف قائلة في صفحة ٣٧: «.. إحساس بأن مدافع الحرب في سنة ١٩٦٧ لم يكن هدفها تدمير المدن فحسب بل تدمير الذاكرة العربية..».

ولعل أهم إشكالية نهتمّ بها في هذه القراءة، هي تلك التي أصبحت تتميّز بها الدول العربية على الخصوص ودول «العالم الثالث» على العموم.. إنها أزمة الشغل والهجرة باعتبارها الحقيقة القائمة في هذه الدول.. إنها الحقيقة التي تتجلى في مختلف المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.. وكما تقول الكاتبة: إن العدوان الغاشم.. على المجتمعات العربية في الماضي والآن، لعب دوراً خطيراً في ما آلت إليه هذه المجتمعات.. ولعل الدور الذي تقوم به الدول الغربية اليوم، وعلى رأسها الولايات المتحدة، تجاه البلدان العربية، لدليل قاطع، على ما نقول.. فمحاصرة العراق ثم ليبيا، وبعدها سيأتي دور دول عربية أخرى، من غير أن ننسى فلسطين التي توجد في الصف الأوّل.. في المعاناة والمطاردة والمحاصرة.. لحقيقة تؤكد أن الغرب يهدف إلى القضاء على العرب بواسطة الحروب المباشرة وغير المباشرة...!

إن أهمية موضوع الهجرة في البلدان العربية وارتباطه الوثيق بالمواقف الإيديولوجية والسياسية الحالية.. أصبح يستدعي من الشعوب العربية أن تتوحّد وتتكتّل أكثر فأكثر لمواجهة الأخطار الداخلية والخارجية التي أصبحت تهدّدها بالفعل.. هذا الموقف أصبح يستدعي كذلك بالأساس تغييراً في المواقف وتطويراً في الوعي.. ويتمّ تأكيد ما نقوله وتعزيزه. من خلال ما جاء في الرواية عموماً، لإشكالية الهجرة للعرب المهاجرين الذين يعانون أزمة الوعي بهذه الإشكالية.. حيث نجد الكاتبة تقول في صفحة ٥٢: «نحن مجموعة جبناء لأننا هجرنا بلادنا، وعبثاً نبحث عن الخلاص في مكان آخر».

ويتحول الحوار في صفحة ٦٩ بين أبطال الرواية، حول معاناة المهاجرين إلى تساؤل جادّ وعملي.. عندما قالت البطلة نادية في الرواية: «أيها السادة لقد مللت أحاديثكم عن السجون، والغربة! لماذا لا تفعلون شيئاً آخر؟».

هذه التساؤلات ذات الدلالات العميقة في الرواية جعلت (نادية) تعيش ثورة على واقع الهجرة والمهاجرين.. ثورة على النفس الراضخة المستسلمة.. لهذا الواقع المأساوي.. واقع الغربة والسجون..!

ومن أهم النتائج لهذه الثورة، كما جاد ذلك في الرواية، مدى اقتناع البطلة نادية بالحلّ المنطقي والمعقول.. لإشكالية الهجرة أو الغربة، بعد معرفتها حقّ المعرفة لهذه الإشكالية.. هو الرجوع إلى الوطن.. والعمل على تغييره وتطويره.. لما فيه الصالح العام. وهكذا تنتهي «نادية» في الرواية إلى معالجة هذه الإشكالية، كما نرى، إلى حل مقبول وواقعي ومعقول.. حلّ واعٍ وهادف وذي أهمية. وإن كانت إشكالية موضوع الغربة أو الهجرة تتشابك فيه عناصر أساسية ومتعدّدة ومختلفة.. ويدلّ هذا القول الذي سنستشهد به بوضوح على أن الهجرة المفروضة على المهاجرين مهما طالت.. فإن المهاجرين سيظلون يحلّلون ويفكّرون.. في العودة إلى أوطانهم التي حُرموا منها...!

تقول الكاتبة في صفحة ١٥١ و١٥٢: «وأصبح الحب أكبر منها، أصبح أكبر من البحر والمسافة، لكنها ظلّت تعيش حياتها في باريس كأي مهاجرة تحلم بالعودة إلى وطنها...».

- المغرب -

---

(١) رواية: «من يجرؤ على الشوق»، حميدة نعنع، دار الآداب - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٩.

(٢) «إشكاليات الفكر العربي المعاصر»، محمد عابد الجابري، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر - الدار البيضاء ١٩٨٩.